

الفصل الثالث

الثقافة والمعايير الاجتماعية وعلاقتها بدينامية الأفكار المستحدثة

« إذا عرفنا ماهية الثقافة السائدة في مجتمع ما ، بما في ذلك قيمها الخاصة بها ونوازعها ، فانتا نستطيع أن نتنبأ بشيء كثير من الثقة ، بما إذا كان العدد الأكبر من أفراد هذا المجتمع يرحبون بفكرة مستعدنة أم يقاومونها » .

« رالف لينتون عام ١٩٥٢ »

والهدف من هذا الفصل إنما هو العمل على إبراز أهمية القيم الثقافية في ذبوع الأفكار الجديدة ، وبناء الملامح الأساسية في نمطين مثاليين من أنماط المعايير الاجتماعية وهما النمط التقليدي القديم والنمط العصري الحديث ، وتوضيح أثر المعايير السائدة في تنظيم اجتماعي على قابلية أفرادها لتبني الأفكار المستحدثة .

أهمية الثقافة

في مجال انتشار الأفكار المستحدثة

والمعيار يحدد معناه باعتباره النمط الشائع للسلوك العام الذي يتميز به أفراد تنظيم اجتماعي معين . والمعايير من شأنها أن تؤثر على انتشار الآراء الجديدة إذ أن المعايير اللاصقة بتنظيم اجتماعي معين يمكن أن تكون حائلاً يحول دون إحداث التغيير كما أوضحنا في المثال الذي أوردناه في صدر هذا الكتاب وتحدثنا فيه عن غلى مياه الشرب في إحدى قرى جمهورية « بيرو » . والمقاومة للمستحدث من الأفكار كثيراً ما نجدتها في العادات الخاصة بالطعام والشراب . ففي بلاد « كالهند » مثلاً تجوس الأبقار المقدسة خلال الحقول وترعى كيفما تريد في حين أن هناك ملايين من الناس يعانون من

المجاعة . وفي البلاد الإسلامية لا يأكل الناس لحم الخنزير . وفي معظم البلاد الآسيوية ، وكذلك في الولايات المتحدة ، يؤكل الأرض بعد ضربه وتبييضه وذلك بالرغم من أن الأرض الخام أكثر فائدة لجسم الإنسان . والعادات المتعلقة بالطعام تكون على الأغلب ذات جذور عميقة في تقاليد المجتمع وعلى ذلك فإنها تتأثر متأثراً مباشراً بالقيم الثقافية .

لقد صور « أبوداكا » أهمية المعايير المتعلقة بتنظيم اجتماعي معين في إحداث التوقف الذي يلحق بانتشار فكرة جديدة فذكر أن بذور الذرة الهجين أدخلها ذات مرة أحد المرشدين الزراعيين إلى إحدى القرى المكسيكية مع اتخاذ كل ما يمكن من عناية حتى تنجح الفكرة وتنتشر بين سكان هذه القرية وكانوا من أصل أسباني . ومن قبيل العناية تم اختيار التربة المحلية والتأكد من قابليتها لاحتضان البذرة الجديدة . ففي العام الأول لهذه التجربة اكتشف المرشد الزراعي أن البذرة الجديدة أعطت ثلاثة أمثال المحصول العادي الذي كان متوقفاً من البذور القديمة . والذي حدث أن نصف الفلاحين في القرية اعتنقوا فكرة الذرة الهجين وزرعوها في العام التالي . ولكن بعد مرور عامين عاد جميع الفلاحين تقريباً إلى عاداتهم القديمة في زراعة بذورهم التي اعتادوا على زراعتها من قديم .

لم توقف فلاحو هذه القرية عن تطبيق الفكرة الجديدة ؟ السبب هو أن زوجاتهم لم يحببن الذرة الهجين إذ أن الذرة كانت في العادة تطحن لعمل الخبز المكسيكي وهو على شكل أرغفة مستوية السطح ولا يمكن لأوائك الفلاحين أن يستغنوا عنها في وجباتهم اليومية . أما الذرة الهجين فكان لها طعم غريب المذاق بالنسبة إليهم ، كما أن عجيتها لم تكن تصلح لعمل هذه الأرغفة ، وعلى ذلك يمكن القول بأن معايير التنظيم الاجتماعي في تلك القرية كانت في جانب الأنواع القديمة من بذور الذرة ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبذور الذرة الهجين . ولو كان المرشدون الزراعيون قد أدخلوا

في اعتبارهم المعايير الاجتماعية المحلية بالإضافة إلى اهتمامهم بالظروف المحلية للتربة ، فمن الجائز أنهم كانوا قد توصلوا إلى إنتاج أرغفة أفضل بالإضافة إلى ماحققوه من محصول أكبر .

وثمة مثل آخر من الأمثلة الدالة على أهمية القيم الثقافية في انتشار الإنكار الجديدة وفي هذه المرة يأتي المثال من « فيتنام » . فعند ما نقص محصول الأرز في عام من الأعوام القليلة الماضية ، أدخل مندوبو المعونة الفنية الأمريكية في تلك البلاد سمك « التيلايا » . ومن خصائص هذا النوع من الأسماك التكاثر السريع كالآرانب ، وفي هذه الحال يمكن توفير البروتين اللازم للناس ، وذلك بالإضافة إلى المذاق اللذيذ الذي تميزت به هذه الأسماك . وسار كل شيء على ما يرام وامتلات البحيرات والبرك الواقعة وسط المزارع بكميات هائلة من الأسماك إلى أن حدث أن أشاع بعض الناس أن السمك سام . وانتشرت الإشاعة وساعد على انتشارها أن كل من أكل من هذه الأسماك ثم مرض بعد ذلك عزي مرضه إلى هذا النوع من السمك . ولقد ترتب على ذلك ظهور قدر كبير من المعارضة للفكرة ، وكان لابد أن تمضي فترة طويلة تقدر بسنوات ثلاث قبل أن يصبح سمك « التيلايا » جزءاً أساسياً في الطعام المحلي .

يوضح هذا المثال أن انتشار الأفكار الجديدة ليس مجرد أمر ينطوي على فوائد اقتصادية وإن كانت العوامل الاقتصادية قد تكون هامة في كثير من الحالات . والاعتبارات الاقتصادية قد تكون على الأغلب ذات أهمية في المجتمعات الحديثة تفوق الأهمية التي لها في المجتمعات التقليدية القديمة . وواحدة من أولى الدراسات التي أجريت وفقاً لمنهج علم الاجتماع قد أكدت هذه النقطة . ولقد قارن « بدرسون » عام ١٩٥١ بين معدل السرعة الذي يتم بمقتضاه تبني الأفكار الجديدة في مجال الزراعة في محيط الزراع المنحدرين من أصول دانيماركية وبولونية في ولاية « وسكونسن » وبين نفس المعدل

في أوساط أخرى، ومن هذه المقارنة اتضحت له حقائق هامة منها أن المزارعين البولونيين متأثرون بمنبتهم الأصلي حيث تخدم الزراعة أهداف الاستهلاك المحلي في حين أن المزارعين الدانماركيين يعملون في المقام الأول لخدمة أغراض التصدير والتسويق الخارجي. والقيم الثقافية للمزارعين الدانماركيين من شأنها المعاونة على اعتناق الأفكار الجديدة في حين أن المعايير السائدة في البيئة البولونية تخدم استمرار الأوضاع القديمة الموروثة .

وثمة مثال أخير على الصلة بين الثقافة وانتشار الأفكار الجديدة في بيئة من البيئات نجده واضحاً في مجتمع هنود « الشوشوني » الضاربين في ولاية « نيفادا » . إن القيم الثقافية من شأنها أن تؤثر ليس فقط على اعتناق الفكرة الجديدة أو رفضها ، بل أيضاً على الطريقة التي يتم بمقتضاها اندماجها في صميم أسلوب الحياة السائدة في مجتمع من المجتمعات . والنتائج المترتبة على انتشار فكرة مستحدثة يقررها ويحدد شكلها العام الثقافة السائدة في المجتمع . فعند ما دخلت الخيول في ثقافة هنود « الشوشوني » ، استطاع هؤلاء أن يعرفوا ماذا ينبغي لهم أن يصنعوه بهذه الخيول . لقد كان لهذه القبائل خبرة سابقة بالخيول إذ سبق لهم أن سرقوا خيول المهاجرين الأول وذبحوها لطعامهم ، وعلى ذلك عندما كانوا يمنحون عدداً من الخيول لاستخدامها في نقل الأثقال وجرد العربات رحبوا بها ترحيباً كبيراً ولكنهم كانوا يأكلونها .

المعايير القديمة والحديثة

ومن الأمور الهامة ، من الناحية النظرية ، أن نفرق بين نمطين مثاليين من أنماط المعايير وهما النمط التقليدي القديم والنمط الحديث . ولسوف نتحدث الآن عن هذين النوعين من أنماط المعايير ولكننا نعتقد أن القارئ ينبغي أن يفهم أولاً المقصود « بالأنماط المثالية » . والأنماط المثالية مامى

الإلهام واقعية قائمة على أساس ملاحظات تدور حول الحقيقة وهذه المفاهيم ذات تركيب يثير المقارنات . والأنماط المثالية ليس من الضروري أن توجد على شكل اختباري ولكنها قد تنشأ عن طريق تجريد السمات المميزة للسلوك الذى نقوم بتحليله تجريداً يصل إلى حدود المنطق الوضعى .

والأمثلة الاختبارية (في حالة المعايير) تقارن عادة مع الأنماط المثالية لرؤية مدى اقتراب الحالات الاختبارية من الأنماط المثالية . والهدف من إقامة الأنماط المثالية إنما يدخل مباشرة في نطاق مناهج البحث إذ أن هذه الأنماط توفر الأدوات اللازمة للتحليل وما يتفرع عنه من تعمق في الفهم . والأنماط المثالية إنما هي « مثالية » ، ليس من ناحية أنها تبصرنا بما ينبغي أن يكون بل لأنها تبرز منطقياً بعض أبعاد التحليل . والأنماط المثالية يمكن أن تنشأ لأغراض التحليل المنطقي في مجالات الدراسة بكل أنواعها .

ومنذ عهد سحبة فكر رجال علم الاجتماع في الأنماط القطبية التي هي في الواقع أنماط مثالية تتضمن ما عبر عنه عالم الاجتماع « دوركيم » بالتضامن الآلى العضوى ، و « فيبر » بالأنماط الاجتهادية والتقليدية ، و « هاولى » بالأنماط ذات الكيان المشترك مع الحياة المستقلة ، و « مروتون » بالأنماط المحلية العالمية ، و « سوروكن » بالأنماط الخاصة مع العامة ، و « بيكر » بالأنماط الدينية الدنيوية . والأنماط المثالية للمعايير الخاصة بالتنظيم الاجتماعى وهى المعايير المستخدمة هنا — بنوعها التقليدى والحديث — تقوم ، على الأقل في ناحية من نواحيها ، على أسس مستمدة من الأنواع المثالية سابقة الذكر .

ومن الجائز أن نرى من يستخدم عدداً من المرادفات لما أوجزنا في مجال وصف النمط الحديث للثقافة فيقال إنها ثقافة أكثر استعداداً لقبول (٦ — الأنسكار)

الأفكار الحديثة ، أو أكثر قابلية للتطور ، أو أكثر تقدماً ، أو أكثر إحساساً بأهمية العامل الاقتصادي . والبعد الخطر ، على أى حال ، هو أن الأفراد في التنظيمات الاجتماعية التي تأخذ بالمعايير الحديثة تنظر إلى الأفكار الجديدة نظرة أفضل وهم على استعداد لاعتناقها أسرع مما هو الحال مع أولئك الذين ينتمون إلى تنظيمات اجتماعية تقليدية . إن دعاة التجديد من شأنهم الترحيب بالتغيير في حين أن أنصار النظم السائدة يقاومون كل ما هو جديد .

وفي كلمات عامة ، يمكن القول إن التنظيم الاجتماعي ذى المعايير التقليدية يتميز بسمات معينة ، منها :

- ١ - الأسلوب التكنولوجي المتأخر - الزراعة لأغراض التكوين المحلي هي الاتجاه الغالب .
- ٢ - التعليم المحدود الذي لا يرتفع عن مستوى القراءة والكتابة - الاتصال عن طريق الكلمة المنطوقة وليس عن طريق وسائل الإعلام الجماعي .
- ٣ - ابتعاد أفراد التنظيم الاجتماعي عن الاتصال بغيرهم ممن يعيشون في تنظيمات اجتماعية أخرى .
- ٤ - انعدام التفكير الاقتصادي بحيث ينظر الناس إلى العلاقات الجماعية الأولى كالود والكرم ليس باعتبارها أموراً أساسية في المجتمع ، بل باعتبارها غايات في حد ذاتها وليست وسائل إلى غايات .
- ٥ - انعدام القدرة لدى الأفراد على وضع أنفسهم في مواضع الغير وتخيل ما يحدث بعد ذلك . والشخص الخاضع للأوضاع التقليدية لا يقابل أفراداً جدداً ، ولا يقوم بأعمال جديدة ، ولا يدخل نفسه في علاقات اجتماعية جديدة كما يفعل الشخص المعصرى . والأفراد المنتهون لتنظيم اجتماعي تقليدي قديم يقومون في العادة بعمل واحد محدد الملامح ولا يحاولون أن يتعلموا أعمالاً أخرى .

والتنظيم الاجتماعى العصرى يتميز بالآتى :

١ - تكنولوجيا متقدمة مع تخصص دقيق . وأفراد هذا التنظيم تغلب على أعمالهم المسحة الحضرية وهم من تلك الناحية يفوقون غيرهم ممن ينتمون للتنظيم الاجتماعى التقليدى القديم . وبالرغم من أن التنظيم الاجتماعى التقليدى قد يكون قد لحقه شىء من التصنيع إلا أن نمط هذا التصنيع لن يخرج عن نطاق الصناعة الصغيرة ، صناعة الكوخ ، وليس صناعة المصنع الكبير .

٢ - تقدير عال للملوم والترية .

٣ - عالمية العلاقات الاجتماعية . والآراء الجديدة تأتى عادة إلى التنظيم الاجتماعى من مصادر خارجية كما أن أفراد التنظيم الاجتماعى العصرى يتفاعلون عادة مع غيرهم ممن يعيشون فى تنظيمات اجتماعية أخرى .

٤ - التخطيط فى هذا التنظيم يكون عادة على درجة كبيرة من الدقة كما أن القرارات التى تصدر فى نطاق هذا التنظيم تنجّه وجهة اقتصادية مفيدة للجميع كما أن أنجع الوسائل تستخدم للوصول إلى الأهداف المرجوة .

٥ - القدرة على أن يضع المرء نفسه فى مكان غيره ويتصور عمله ومسئوليته .

والخلاصة أن التنظيم الاجتماعى الخاضع لمعايير حديثة يكون فى العادة أكثر تقدماً تكنولوجياً ، كما يكون أكثر انفتاحاً على العالم الخارجى ، وأكثر انغماساً فى قضايا التعليم ، وأكثر واقعية فى التفكير ، وأخيراً أكثر ثقة وأكثر تأكيداً . والاستراتيجية التقليدية للحدث وصفها «فون نيومان» و«موجانسترن» عام ١٩٥٣ فى تعبيرات شبيهة بتلك التى يستخدمها المهتمون بالرياضة البدنية . فاللاعب التقليدى ، بدلاً من أن يتخذ قراراته تبعاً للحاجة إلى مثل هذه القرارات وخضوعاً لظروفها ، يفكر عادة تفكيراً

سابقاً لأوانه ويتخذ لكل أمر عده . على هذا نقول إن الشخص التقليدي يبدأ لعبه بخطة كاملة ، أى بخطة تتضمن النص على ما ينبغى أن يفعل فى كل موقف من المواقف التى قد يتعرض لها وإزاء ما يمكن أن يعتنقه من أفكار ومعلومات . وفى التنظيم الاجتماعى التقليدى تتولى سلطة عليا ، هى سلطة استلهاام الامس والعودة إلى ما كان يفعله الآباء ، تقرير نوع التصرف الذى ينبغى أن يتبع فى موقف من المواقف .

وثمة خطر واحد ينتج عن التفكير بطريقة الأنماط الثقافية المثالية ألا وهو أن مدى التباعد بين الفروق السكائنة فى المعايير من الجائز أن يبالغ فى التأكيد عليها . أى أنها قد تعمل من الحبة قبة . والخلاصة أن الأنماط المثالية التقليدية منها والحديث ما هى إلا مراحل قطبية على الطريق التى يقطعها انتشار الفسكرة الجديدة .

وحديثنا هذا ينبغى ألا يفهم على أنه يعنى أن المعايير التقليدية ليست مطلوبة بالضرورة . وفى حالات عديدة ، قد يمنح القدم صفة الاستقرار لتنظيم اجتماعى معرض للتغيير السريع ولخطر التفسكك .

قياس البعد الموضح لمدى القدم أو الحدائنة

١ - على مستوى الفرد :

هنا نحن قد فرغنا من الكلام عن معايير النظام الاجتماعى التقليدى والحديث . ومن الممكن أن نقيس مراكز الأفراد فوق رقعة منتشرة تبدأ من نمط مثالى إلى نمط مثالى آخر . والأساليب الفنية المنوعة التى استخدمت لقياس البعد المعبر عن مدى القدم أو الحدائنة على مستوى الفرد تتضمن :

١ - مقياس « بنفوتوت » الذى وضعه عام ١٩٦١ وهو يتكون من عشر نقاط . ولقد سئل كل فلاح فى مجموعة من الفلاحين عددها ٤٨٤ ، وتسكن بلدة ريفية فى هولندا معرضة لتغيرات اجتماعية عديدة ، سئلوا

رأيهم عن كل نقطة من النقاط العشر . لقد خصصت درجات لكل إجابة عن كل نقطة من النقاط العشر سواء أ كانت صحيحة أم خاطئة . وإن درجة انغماس الفرد في قضايا المجتمع الخارج عن بيئته الصغيرة التي يعيش فيها كانت على هذه الحال كأنها المسطرة التي استخدمها « بنفوقى » لقياس درجة العصرية والتحرر من قيود الماضى . وثمة من الشواهد ما يثبت صدق هذا المقياس .

٢ — مقياس « ليرنز » الذى وضعه عام ١٩٥٨ لقياس درجة العصرية والتحرر من تقاليد الماضى وطبقه على عدد من مواطنى بعض الدول الواقعة فى منطقة الشرق الأوسط سائلاً إياهم رأيهم فى تسعة أسئلة تدور حول قضايا عامة . لقد قسم « ليرنز » هؤلاء المواطنين إلى فئات ثلاث على أساس ما فى إجاباتهم من اتجاهات سواء نحو القديم ، أو نحو المتوسط ، أو نحو الحديث . لقد افترض « ليرنز » أن الأفراد المتجهين نحو الأخذ بالحديث ينبغي أن تكون لديهم القدرة على تقمص المواقف والأدوار الخاصة بمن ينتمون للبيئات الأخرى الخارجة عن البيئة الضيقة للفرد وهم بذلك يجب أن يكون لهم رأى فى القضايا العامة ذات الصلة بمجتمعات خارجة عن مجتمعاتهم .

٣ — الكشف الذى وضعه العالم « كوب » عام ١٩٥٦ والخاص بهذا البعد فى أوساط مربي الأغنام بولاية « كانساس » وهذا الكشف وضع بسؤال هؤلاء عما اعتقدوا أنه من مقومات النجاح فى مجالات الزراعة وإدارة المزارع . ولقد قسمت الإجابات إلى حديثة (أى مرنة) أو تقليدية (أى جامدة) . ومن الإجابات التى اعتبرها « كوب » ذات اتجاه تقليدى قديم إجابات مثل : « عمل شاق » ، « كد وعناء لا ينتهيان » ، « لا تذكرنى بما أظن » .

٤ — مقياس « هوب » الموضوع عام ١٩٦٠ ويوضح إذا ما كانت العينة

التي اختارها، وهي العينة المكونة من ٣١٥ مزارعاً من مزارعي ولاية أيووا،
وتسير في طريق العمل التقليدي، أو أنها، تنبج نحو التنظيم. لقد اعتبر
د هوب، أن السير في الطريق التقليدي إنما هو دلالة من دلالات التعلق
بالقديم.

وفي لمحة كلامية بارزة المعالم أدلى بها فلاحان هولنديان من بين الذين اتخذهم
د بنفوتى، موضوعاً لدراسته عام ١٩٦١، نستطيع أن نحظى بإشراقة تبصرنا
بمواقع الأفراد من السياق المطرد للبعد الموضح لمدى القدم أو الحداثة.

الفصل الأول: عصرى الاتجاه :

تسكن عائلة هذا الفلاح مزرعة يفوق حجمها الأحجام المعتادة في
المزارع، ولكن الاتجاه العصري لأفراد هذه العائلة يعزى لشيء آخر
أكثر من مجرد المستوى الاجتماعى المرتفع. ورب هذه الأسرة مشغول
دائماً وهو أيضاً يعطى ما يعمل كل اهتمامه وعلى ذلك كان بما لا مناص منه
أن يحل الحديث التليفونى محل المقابلة الشخصية. لقد كان هذا الفلاح
مسئولاً عن الجمعية التعاونية المحلية كما كان مشتركاً فى عدة هيئات محلية فى
قرية. ولما سئل عما لوحظ على مخزن غلاله وعلى منشئاته من اختلال فسر
الفلاح ذلك بقوله : د لابد للمرء من أن يتساهل قليلاً فى المظاهر وأن
يحاول العمل بجهد وكفاية على قدر الطاقة.

وهذا الفلاح يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، متخرج من مدرسة
زراعية، ولم ينقطع منذ تخرجه عن حضور الدراسات المسائية العملية فى
الزراعة. لقد أخذ المزرعة عن أبيه الذى تركها وعاش فى المدينة. وزوجة
هذا الفلاح ترتدى الملابس العصرية وكانت قد عادت توأ من جولة فى المحال
العامة للشراء عند ما ذهب الباحث لمقابلتها ومعرفة ردودها على أسئلة
الاستفتاء. لقد أظهر أطفال العائلة سلوكاً ودياً تجاه الزائر إذ من الواضح
أنهم كانوا معتادين على رؤية الغرباء فى منزلهم. كانت العائلة قد عادت توأ

من زيارة سياحية لعدة مدن هولندية نظمتها إحدى الجمعيات الريفية ، وكانت العائلة معنادة على تمضية إجازاتها في زيارة الأصدقاء المقيمين في مدن أخرى أو الاسترخاء على شاطئ البحر . على أن هذه العائلة لم يكن لديها أصدقاء من بين أهالي الجيرة القريبة ، كما أن أصدقاءهم في المدن لم يكونوا من فئة المزارعين أمثالهم . وفي أثناء المقابلة مع الباحث حضر شخص من جيران المزارع طالباً النصيحة في مشكلة زراعية وكان من الواضح أن جيران هذا المزارع ينظرون إليه على أنه من الفلاحين ذوي النزعة التقدمية .

كان هذا المزارع بدير شتون مزرعته إدارة مالية دقيقة، ويستخدم بذوراً نظيفة ، كما كان الممثل المحلي لإحدى شركات الآلات الزراعية وكان على علم ببعض الأفكار الزراعية الحديثة اكتسبها من أسفاره العديدة ومن اطلاعه على المطبوعات التي تعالج الموضوعات الزراعية . ومن الجدير بالذكر أن الباحث استطاع أن ينشئ علاقة مباشرة مع هذا المزارع فكان يزوره مرة كل شهر كما كان يتصل به تليفونيا مرات عديدة . وفي ختام البحث عندما صحب الباحث حتى الباب الخارجى قال المزارع للباحث : « عندما تكمل بحثك هلا مكنتنى من الاطلاع على نتائجه ؟ » .

الفصل الثانى : متمسك بالتقاليد :

ومن نواحي عديدة تشكل عائلة هذا الفلاح الصورة المضادة لعائلة الفلاح الأول . والفلاح الثانى أكبر سناً من الفلاح الأول كما أنه أقل تعليماً ورجحته لا تمتد إلى الأفراد المحليين ولا تتجاوزها أبداً إلى آفاق أكبر وكذلك الحال مع أفراد عائلته . وعندما سئلت زوجته عما إذا كان أصدقاء العائلة من بين أفراد الجيرة القريبة أم لا أجابت بنبرة خاصة مؤداها : « كيف يمكن للإنسان أن يكون لنفسه مجموعة من الأصدقاء إذا لم يحتر أصدقاءه من بين الساكنين بالقرب منه ؟ » .

وأبنية المزرعة التي يملكها هذا الفلاح تحتاج إلى الكثير من الإصلاحات الضرورية كما أنها تنقصها المعدات والآلات اللازمة للزراعة وما يتفرع عنها من أعمال وكذلك تنقصها الإدارة المالية المنظمة . ولقد ارتبك هذا الفلاح واستولت عليه الحيرة عند سماعه لكثير من الأسئلة التي طرحها عليه الباحث الاجتماعي ولم يجد لها جواباً إذ لم يكن قد فكر في الموضوعات التي تناولتها الأسئلة . وعندما سئل عن السبب الذي من أجله يساء استخدام حيوانات المزرعة وتندم العناية بها أجاب قائلاً : « حسن ، لقد كان هذا هو حالها دائماً ونحن نراها ملائمة لنا هكذا » .

ظل هذا الفلاح يكرر القول بأنه مضطر إلى أن يعمل عملاً شاقاً متواصلاً لكي يعيش هو وأفراد عائلته فلا أجازات ولا تسليّة من أي نوع بل حرمان كامل من الصحبة والزوار والأصدقاء . أما أطفال هذا الفلاح فكان يبدو عليهم الميل إلى الانزواء والشعور بالحنج ، ولقد جلسوا منكشيين في ركن من المطبخ أثناء الحديث بين الباحث الاجتماعي وأبيهم . كانت الأسرة تعتبر من الأسر الكثيرة العدد إذ أن والد هذا الفلاح ووالدته شاركاه حياته كما كان لهما تأثير كبير على مجرى الأمور في حياة الأسرة . لم يكن من عادة أفراد هذه الأسرة أن يطلعوا على الجرائد والمجلات كما لم يهتموا أي اهتمام بالسياسة والقضايا العامة .

على أن هذا الفلاح كان معارضاً للإجراءات التي تحتّمها الحكومة لضمان النظافة العامة في أماكن حلب اللبن وتصنيعه ، وكان يقول : « إن العيب عيب الموظفين الذين لا هم لهم اليوم سوى البحث عما يحفظ لهم وظائفهم » . ومن السهل على المرء أن يكتشف ما يحس به هذا المزارع من شعور بالغربة إزاء البيئة التي يعيش فيها وأهلها — إنه يحس بأن هذه البيئة تتغير تغيراً سريعاً وتسير في اتجاهات لا سلطة له عليها .

وجد أفراد الأسرة صعوبة في الإجابة على عدد كبير من الأسئلة التي

كانت توجه إليهم من الباحث الاجتماعى . ويمكن القول إن الاستهتار وعدم الاهتمام كان الطابع المميز لهؤلاء . عند الإجابة على الأسئلة المكون منها الاستفتاء . والإجابة الأولى لكل سؤال تقريباً كانت « أجل » . فشلا عندما كان السؤال :

« هل والداك مازالا على قيد الحياة ؟ » ، كانت الإجابة « أجل » ولكنهما توفيا . لم يحس هذا المزارع بالكثير من الاهتمام فى شأن الأسئلة التى كانت توجه إليه من قبل الباحث الاجتماعى ولذا كانت ردوده مقتضبة وظل الحال كذلك حتى نهاية المقابلة .

والتسميات المميزة للأفراد المعصرى الاتجاه والمتمسكين بالتقاليد الذين تقابلهم عادة فى المجتمعات الأخرى قد تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التى تميز هذين الشخصين : المزارع الأول والمزارع الثانى . وبالرغم من ذلك نقول إن المزارع الأول يمثل النمط المثالى الحديث الذى سبق أن تحدثنا عنه فى مطلع هذا الفصل . ونحن إذا قارنا بينه وبين المزارع الثانى لوجدناه أقدر منه من الناحية الفنية التكنولوجية ، وأكثر انفتاحاً على العالم الخارجى ، وأكثر تعليماً ، وأعمق فهماً لأوضاعه المادية وأشد ثقة بنفسه .

ومن الأمور الهامة ملاحظة أنه فى كل دراسة من هاتين الدراستين ، كلما وجد مقياس مناسب لقياس البعد الخاص بالاتجاه نحو القديم أو بالأخذ بأسباب الحديث على مستوى الفرد ، فإن درجة مبادرة الفرد إلى تبني الفكرة الجديدة تخضع لمدى تعرضه للمؤثرات العصرية لا لغيرها من المؤثرات . وما يثير دهشتنا حتماً أن نجد أحداً من الناس ممن يتعرضون للمؤثرات العصرية أقل حساسية للأفكار المستحدثة من غيره . وما يبعث الطمأنينة إلى نفوسنا علماً بأن هذا التقييم تؤيده إلى أبعد الحدود البحوث العلمية التجريبية .

والأفراد المنتمون لتنظيم اجتماعى معين ممن يتميزون بالاتجاه نحو

الحديث لا يكونون أكثر خضوعاً للأفكار الحديثة من أقرانهم التقليديين
لحسب ، بل من الجائز أن نعيش على قدر يسير من الصلات الاجتماعية بين
الفتتين ، وهذا ما يوضحه « فان دى بان » ، عام ١٩٥٧ فى بحثه عن انتشار فكرة
الحلب الصناعى فى قرية من قرى هولندا ، حيث وجد أن عدداً قليلاً من
ياخذون بالأفكار الحديثة كان لهم قصب السبق فى الأخذ بالفكرة الجديدة ،
وبعدها مباشرة تكاثرت اتباع الفكرة . على أنه بعد ذلك لوحظ أن مدى
انتشار الفكرة بدأ يضعف بسبب أن الغالبية العظمى من المزارعين ذوى
الانجماوات التقليدية لم يعتنقوا الفكرة الجديدة . لقد اكتشف « فان دى بان »
أن الصلات الاجتماعية بين الفتتين من المزارعين - العصريين والتقليديين -
تسكاد أن تكون معدومة ، كما لو كانت كل فئة تعيش فى تنظيم اجتماعى
منفصل عن الآخر وليس فى بيئة واحدة .

٢ - معايير التنظيم الاجتماعى :

والبعد الخاص بمدى الأخذ بالأفكار الحديثة أو الاتجاه نحو الأوضاع
التقليدية القديمة يقاس الآن ليس فقط على مستوى الفرد بل كذلك على
مستوى معايير التنظيم الاجتماعى السائد . والصعوبة الناشئة عن قياس هذا
البعد على المستوى الجديد ، وهى الصعوبة التى أوجدها تعدد الأنماط
السلوكية فى التنظيم الاجتماعى الواحد ، قد تكون فى حد ذاتها أكبر من
صعوبة قياس التمسك بالقديم على المستوى الفردى .

وفى مجال الأخذ بالأفكار الحديثة أو الالتزام بالقديم ، ثمة طرائق
ثلاث متباينة لقياس معايير التنظيم الاجتماعى السائد :

١ - إيجاد المعدلات الرقمية لأفراد التنظيم الاجتماعى فى مجال الأخذ
بالأفكار الحديثة ، وبعدها يمكن المقارنة بين هذه المعدلات فى بيئة معينة
وبين مثيلاتها فى بيئات أخرى . ومن بين الباحثين الذين استخدموا هذه

الطريقة، طريقة المعدلات الرقية ، «مارش» ، «كولمان» ، «فان دى بان» ،
«دراهودكار» ، «دروجرز» ، «دبيردج» . وثمة صعوبة يواجهها
أحياناً من يأخذ بطريقة المعدلات الرقية هي أن الأفكار المستحدثة ليست
هي نفسها في كافة المجتمعات التي تجرى فيها الدراسة . فالفلاحون في بيئة
من البيئات مثلاً قد لا يربون أبقار الحلب وعلى ذلك فإن الأفكار
المستحدثة في مجال الحلب لا يمكن أن تستخدم لقياس مدى «عصرية»
أفراد هذه البيئة .

٢ - إيجاد مقياس قائم على أساس فكرة أفراد البيئة عن الذين
يأخذون بجديد الأفكار ، فإذا كان أفراد البيئة ينظرون إلى هؤلاء نظرة
طيبة يمكن القول بأن التنظيم الاجتماعي السائد في تلك البيئة يسير وفقاً
لمعايير عصرية . فمثلاً نجد أن «فان دى بان» يسأل الفلاحين في ثلاث
قرى هولندية : «كيف ينظر الناس هنا إلى الفلاحين الذين يبادرون قبل
غيرهم إلى اتباع الآراء الحديثة في الزراعة ؟» . بعد ذلك يتخذ من الشعور
الغالب لدى أفراد البيئة ، سواء أكان طيباً أو رديئاً ، أساساً لقياس معايير
التقدم أو التأخر في مجال الأخذ بالأفكار الجديدة في البيئة .

٣ - الاعتماد على تقديرات الخبراء ، وهؤلاء يكونون عادة على معرفة
عميقة بكل النظم والتركيبات الاجتماعية للبيئة التي تدرس ، وقادرين على
ترتيب هذه النظم من ناحية تقدمها أو تأخرها في مجال الأخذ بالأفكار
الجديدة على أن يقاس هذا التقدم أو التأخر وفقاً للمعايير التي يضعها هؤلاء
الخبراء . وهذه الطريقة استخدمها «كامبل» و«هوليك» عام ١٩٦٠ في
بيتين زراعتين من بيئات ولاية «ميزورى» ، وكذلك استخدمها
«دروجرز» و«دبيردج» عام ١٩٦٢ في سبع قرى في ولاية «أوهايو» .
ويعطينا الجدول التالي بياناً مقارناً للمقاييس الثلاثة التي تقاس بها المعايير

المختلفة في تلك القرى السبع . والتشابه الكبير الذى نلاحظه على هذه المقاييس الثلاثة يوحى بأن كل مقياس من هذه المقاييس له نفس الدرجة من الثبات .

ما من واحد من هذه المقاييس الثلاثة لقياس المعايير الاجتماعية يمكن أن يقال إنه فوق النقد الموضوعى . ومع ذلك فلا بد أن نتذكر دائماً أنه، بالرغم من الأهمية الكبيرة للمعايير فى الكتابات الاجتماعية، فإن ثمة محاولات قليلة جداً بذلت لقياسها . ومن الجائز أن نجد مستقبلاً جهوداً فى مجال البحث تستهدف تطوير المقاييس الخاصة بالمعايير الاجتماعية فى مجال الأخذ بالجديد أو إلزام القديم وفى غير ذلك من المجالات .

وبالرغم من ذلك تهيم المقاييس الراهنة لنا دليلاً يهديننا إلى المعايير ذات الصلة بالتنظيم الاجتماعى .

ومن الممكن القول بأن المعايير الخاصة بإحدى التنظيمات الاجتماعية إنما هى أكثر التزاماً بالتقاليد أو أكثر اتجاهًا نحو الجديد من معايير تنظيم اجتماعى آخر .

مقارن بيلان

للالة مقاييس تقيس التنظيم الاجتاعي في مجالات الترام القديم أوالأخذ بالجدديد مع الاستعانة بمعلومات مستمدة من، سبع قرى زراعية في ولاية أوهايو.

أسماء القرى الستة في ولاية أوهايو	المدلات النسبية للمالة على استعداد الألاجين للاخذ بالأسكار الجدي، على كل قرية كمبار من معايير الية	النسب الجوية للألاجين ل كل قرية الدين يتشارون نظرة طية لى من بأخذ مجدي الأسكار باعتبار هذه النسب مجاراً من معايير الية	الطبعوات الممارية للالة نفساء لتحديد المايير المالة على مهصرية أعمل الية
أوك جروف	٥,١٥	٪. ١٠٠	٦,٧
دى فولا	٤,٩٢	٪. ٦٧	٦,٣
يفرلى	٤,٦٠	٪. ٨٩	٣,٧
رينسو	٤,٣٢	٪. ٨٦	٣,٣
لويزيل	٣,٩٥	٪. ٥٦	٣,٣
بلبرى	٣,٨٦	٪. ٤٣	٢,٣
هلبوروز	٣,٨٣	٪. ٦٥	٢,٣

معايير التنظيم الاجتماعي

وقابلية الفرد للأخذ بجديد الأفكار

لقد أوضحنا في أول هذا الفصل أن المعايير السائدة في البيئة دخل كبير في تقرير ما إذا كانت الفكرة الجديدة قابلة للانتشار بين أفراد البيئة ونتائج هذا الانتشار . كذلك أوضحنا أنه إذا كانت المعايير الخاصة بالتنظيم الاجتماعي في مجال التزام القديم والأخذ بالجديد على درجة كبيرة من الأهمية فإن هذه المعايير ينبغي أن توضح ناحية من نواحي الاستعداد لتبني الأفكار الجديدة وهي الناحية التي لا يمكن تفسيرها بأية طريقة أخرى . وفي كلمات أخرى ، نقول إن المعايير الخاصة بتنظيم اجتماعي معين ينتظر أن تؤثر على سلوك أفراد هذا التنظيم . إن استعداد الفرد للأخذ بجديد الأفكار يختلف مباشرة مع المعايير التي يصطنعها تنظيمه الاجتماعي لهذا الانجاء .

وثمة دراستان هامتان تؤكدان صحة هذه القضية الأخيرة :

١ - درس د فان دى بان ، عينة مكونة من ٩٠٣ من الفلاحين المقيمين في ٧ دائرة سكنية . والمعيار الذي وضع لكل ناحية من هذه النواحي السبع والأربعين لقياس التمسك بالقديم أو الانجاء نحو الجديد قام أساساً على طريقة حساب المعدلات النسبية الدالة على مدى الاستعداد للأخذ بالأفكار الجديدة . وإن صفات مثل درجة تعلم الفلاح ، وحجم المزرعة ، والحالة الاقتصادية الغالبة ، ظهر أنها ترتبط ارتباطاً إيجابياً بقابلية الفرد لاعتناق الأفكار الجديدة . غير أن المعايير الخاصة بتلك الدوائر السكنية انضغ أنها أقدر على الكشف عن قابلية الأفراد لتبني الأفكار المستحدثة من تلك الصفات الاجتماعية والاقتصادية . وانتهى د فان دى بان ،

في دراسته إلى أن الفلاح ، ذا الدرجة العالية من التعليم والمزرعة الكبيرة والمستوى المادى المرتفع وإن سكن منطقة لها معيار اجتماعى يتمسك بأهداب القديم ، فإنه يميل إلى اعتناق قدر من الأفكار الزراعية الحديثة أقل من القدر الذى كان لابد أن يعتنقه لو أنه عاش في منطقة سكنية لها معايير اجتماعية تنجبه نحو الأخذ بما هو عصرى في مجال الزراعة وإدارة المزارع .

٢ - والدراسة الثانوية هي الدراسة التي قام بها «دوجرز» و«بيردج» عام ١٩٦٢ على سبع قرى في ولاية «أوهايو» تهتم بزراعة الخضروات . لقد وجد الباحثان أن معايير تلك البيئة تفسر من الناحية الإحصائية عشرين في المائة من التغيرات في المعدلات النسبية بقابلة الفلاحين لاعتناق الأفكار الجديدة وذلك بالإضافة إلى التغيرات المتسببة عن أربع صفات اجتماعية . والمعايير الخاصة بالتنظيم الاجتماعى تؤثر على قابلية الفرد لاعتناق الأفكار الجديدة ، وليس هذا فقط بل إنها أيضاً تدخل في تكوين تعميمين سوف يأتى ذكرهما بالتفصيل في الفصل الثامن . والتعميمان هما :

١ - معايير التنظيم الاجتماعى في مجال اعتناق الأفكار الجديدة يبدو أنها تقرر ، على الأقل جزئياً ، قابلية قادة الرأى في البيئة لاعتناق الأفكار الجديدة . وقادة الرأى في التنظيمات الاجتماعية ذات الانجاء العصرى ثبت من عدد كبير من الدراسات أنهم في غالبيتهم ممن يقبلون على اعتناق الأفكار الجديدة كما يسبقون غيرهم في هذا المجال . غير أنه في التنظيمات الاجتماعية حيث يتمسك الناس بقديم التقاليد يكون قادة الرأى فيها أقل قابلية لاعتناق المستحدث من الأفكار .

٢ - إن الاختلافات في درجة قابلية الناس لاعتناق الأفكار الجديدة إنما تشكل حائلاً هاماً يحول دون تدفق التأثيرات داخل التنظيم الاجتماعى ذى المعايير المتطورة وأهمية هذا الحائل تفوق أهميته عندما تكون المعايير

قديمة جامدة . فمثلاً في التنظيم الاجتماعي التقليدي القديم قد يبحث المتزمت عن معلوماته لدى أحد المعتنقين الأول للأفكار ، أما في التنظيم الاجتماعي العصري فن الأمور الأكثر احتمالاً أن يتحدث المتزمت إلى فرد يفوقه قليلاً من حيث القابلية لاعتناق الجديد من الأفكار .

البحث الذي نختاره :

يخلو الميدان الآن من بحث يتناول أثر المعايير المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي على قابلية الفرد لاعتناق الأفكار الجديدة في ميدان الثقافات خارج الولايات المتحدة ، في حين أن الفروق المعيارية قد تكون نسبياً أكثر أهمية ، وعلى ذلك فهي خليقة باهتمامنا .

من الجائز أن تكون التعميمات الخاصة بانتشار الأفكار في البلدان التي لم تستكمل نموها بعد ، على درجة من الغموض لأن بحوثنا في هذا الشأن نسبياً لم تستكمل نموها بعد ، وبخاصة لأن ثقافات هذه البلدان مازالت غريبة على أفهامنا . والنقص في النتائج الجادة المترتبة على بحوث انتشار الأفكار الجديدة في البلدان التي من هذا النوع توضح الحقيقة الثابتة ألا وهي أنه ما يقرب من تسعة وثلاثين بحثاً فقط من البحوث الأربعمئة والخمسة والستين التي يستعرضها هذا الكتاب جرت في مناطق لم تستكمل نموها بعد . ومن أمثلة ذلك أن الخمسمئة والثمانين والخمسين ألف قرية ريفية في الهند هي لنا مختبراً مفيداً يساعدنا على تمحيص الآراء حول أثر المعايير المساندة في المجتمع على انتشار الأفكار . ومن الأمور المتوقعة في هذا المجال أن تهدف الجهود التي تبذل في ميدان البحث إلى تحديد العلاقات التي تربط معياراً بمعيار ، وكذلك أثر المعايير على سلوك الفرد .

ومن أمثلة الدراسات التي أجريت للكشف عن العلاقات التي تربط معياراً اجتماعياً بمعيار اجتماعي آخر ، ما قام به د أرمسترونج ، عام ١٩٥٩

من محاولة لتفسير المتغيرات في مجال انتشار الأفكار الزراعية المستحدثة بين سكان قرى ولاية كنتكي . . لقد أوجد هذا الباحث مقياساً يقيس به المعايير، وهذا المقياس يختلف باختلاف البيئات الواقعة في تلك الولاية ، وربط بينه وبين المتغيرات الشائعة في كل بيئة كدرجة التحضر ، والمستوى الاقتصادي للقاطنين في البيئة ، والتخصص الزراعي الذي تلزم به تلك البيئة . والمحاولة في هذا النمط من البحث إنما تستهدف بهدراً لإمكان تفسير التغير في معايير البيئة ، تلك المعايير التي تقيس درجة إقبال الناس على اعتناق الأفكار الجديدة ، أكثر مما تفسر التغير في قابلية الأفراد أنفسهم على اعتناق الأفكار الجديدة .

والجدول الآتي يبين خمسة أنواع مختلفة من أنواع التحاليل التي وضعها الباحثون في مجال انتشار الأفكار الجديدة . والنمط الأول من هذه التحاليل سوف يكون موضوع دراستنا في الفصل الخامس ، والنمط الثاني في الفصل السادس . أما النمطان الثالث والرابع فقد نوقشا في هذا الفصل من الكتاب ولكنهما لم يحظيا بالاهتمام الذي ناله النمط الثاني ، والنمط الرابع خاص بتحليل العلاقة بين معيار ومعيار وهو النمط الذي تعرضنا له في هذا القسم من الكتاب وتمثله أكل تمثيل الدراسة التي قام بها « أرمسترونج » . أما النمط الخامس والآخر فلم يوضع موضع الدراسة بعد وإن كان لا بد أن يدرس . ناحية أخرى من نواحي البحث المطلوب ، أو البحث الناقص ، هي محاولة الكشف عن الطريقة التي تظهر بمقتضاها معايير التنظيم الاجتماعي سواء على الجانب العصري أو الجانب التقليدي القديم . هذا النوع من الدراسة قد يؤدي إلى الاهتمام بالناحية التاريخية .

وإذا كانت المعايير مهمة في تشكيل السلوك الفردي ، ففي هذه الحال

أنماط التحليلات التي قام بها الباحثون في مجال انتشار الأفكار الجديدة أو التي يمكن أن يقوموا بها مستقبلا

الأنماط	المتغير التابع *	المتغيرات المستقلة *	وحدة التحليل
النمط الأول	معدل السرعة الذي يتم بمقتضاه تبني الفكرة الجديدة في التنظيم الاجتماعي .	الصفات المميزة للفكرة الجديدة كما يراها أفراد التنظيم الاجتماعي	الفكرة الجديدة
النمط الثاني	قدرة الأفراد على تبني الأفكار الجديدة في تنظيم اجتماعي معين .	الصفات المميزة للأفراد .	الفرد نفسه
النمط الثالث	قدرة الأفراد على تبني الأفكار الجديدة في تنظيم اجتماعي معين .	معايير التنظيم الاجتماعي فيما يختص بالترام القديم والأخذ بالحديث .	الفرد نفسه
النمط الرابع	معايير التنظيم الاجتماعي فيما يختص بالترام القديم والأخذ بالحديث .	معايير أخرى وصفات مميزة للتنظيم الاجتماعي .	التنظيم الاجتماعي
النمط الخامس	الصفات المميزة للفكرة الجديدة كما يراها أعضاء التنظيم الاجتماعي .	قدرة الأفراد في التنظيم الاجتماعي على تبني الأفكار الجديدة .	الفرد نفسه

* المتغير التابع هو الدامل الأساسي في الدراسة في حين أن المتغيرات المستقلة هي تلك العوامل ذات الصلة بالمتغير التابع .

يكون من الضروري تحديد الطريقة التي يتم بمقتضاها تغيير المعايير التي تسود في التنظيم الاجتماعي .

وحتى وقتنا هذا ، ثمة قدر صغير من التوفيق بين ما هو معروف عن ذبوع الأفكار الجديدة وبين النظريات الحالية للتغير الاجتماعي . مثل هذا التوفيق قد ينتج عنه ازدهار متزايد لكلا الجانبين .

الخلاصة

المعيار هو النمط الغالب للسلوك الظاهري الذي يصطنعه أفراد تنظيم اجتماعي معين . والأنماط المثالية هي مدركات ذهنية أساسها ملاحظة الواقع .

وثمة نمطان مثاليان للمعايير يطلق عليهما النمط المثالي التقليدي والنمط المثالي العصري . والتنظيم الاجتماعي ذو الأنماط العصرية إنما هو أكثر تقدماً من الناحية التكنولوجية ، وأكثر انفتاحاً على العالم الخارجي ، وأكثر دراية بأصول القراءة والكتابة ، وأكثر خضوعاً لحكم العقل ، وأكثر ثقة بالنفس من غيره من التنظيمات ذات الأنماط الأخرى . والبعء الخاص بالانحياز القديم أو الاتجاه نحو الحديث تم قياسه على المستوى الفردي كما فيس لخدمة التنظيم الاجتماعي . ومن نتائج القياس على المستوى الفردي اكتشافنا بأن قابلية الأفراد لاعتناق الأفكار الجديدة تتأثر بالدوافع العصرية وليس بالدوافع التقليدية القديمة . لقد استخدم الباحثون ثلاثة أنماط من المقاييس لقياس المعايير الخاصة بالانحياز القديم أو الاتجاه نحو الحديث هي :

١ - المستوى العام لميل أفراد التنظيم الاجتماعي إلى اعتناق الأفكار الجديدة .

٢ - شعور أفراد التنظيم الاجتماعي تجاه المعتنقين للأفكار الجديدة .

٣ - رأى القضاة الخبيرين في المعايير وترتيبهم لها وفقاً لأهميتها .
والمعايير السائدة في البيئة يبدو أنها تفسر التغيرات في قدرة الأفراد على
اعتناق الأفكار الجديدة ، تلك التغيرات التي لا تفسرها المتغيرات
الأخرى ، مثل الصفات الاجتماعية . وقدرة الفرد على اعتناق الأفكار
الجديدة تنغير مباشرة وفقاً للمعيار السائد في تنظيمه الاجتماعي والذي
يقيس قدرة أفراد هذا التنظيم على اعتناق الأفكار الجديدة .